الأنظار اللغوية لدى ابن خلدون في مقدمته

أحمد فليّح *

تاريخ تقديم البحث : ٧ / ١١ / ٢٠٠٥ تاريخ قبوله للنشر ٢٣ / ٥ / ٢٠٠٧

Abstract

Linguistics Ideas in the Preface (Almokademeh) of Ibn Khaldon

This paper deals with a number of linguistic and grammatical thoughts by Ibn Khaldon in 'The introduction' which contains a number of such thoughts as competence, language acquisition from society, weakness of competence by contact with non-natives, discussing the linguistic scene at this time and the weakness it suffered. He focused on the term Arab (tongue) and differentiated between the two forms (language and grammar). He also mentioned the reasons behind the rise of Arabic grammar, causes of its weakness and other issues.

الملخص

ناقشت هذه الورقة جملة من أنظار العلامة ابن خلدون اللغوية والنحوية، المبثوثة في مقدمته، ورصدت جملة من أفكاره التي أذن بها / تفعيلاً لأفكار متقادمة أو جديدة، ومنها السليقة اللغوية، واكتساب اللغة، من المجتمع، وفساد السليقة اللغوية أو ضعفها، وتكلم على المشهد اللغوي في عصره، ونبه على أفضلية العربية، وأصل مصطلح (اللسان) العربي، وفرق بين مصطلحي اللغة والنحو، وتكلم على جملة من المسائل النحوية، منها أسباب وضع علم النحو، وهاجم مناهج النحاة في عصرة، وانتقدها، وأشار إلى أسباب ضعف الدراسات النحوية. بعض هذه الأفكار متقادم ولكن ابن خلدون فعلها، وبعضها جديد، يشبه أن يطرح أول مرة، للخاطر الأول. وكأن ابن خلدون يترمى غرض استنهاض الهمم الفاترة، والنفوس الهاجعة في زمن الإنحدار والجمود في القرن التاسع الهجري. والجدة المتوخاة في هذا البحث هو السبق في إذاعة هذه الأفكار الخلدونية بين الناس، سواء أكانت جديدة أم متجددة، ويتغيا البحث، في منتهى أطروحته، استفزاز الناس وتحريضهم على ملابسة أنظار ابن خلدون بقراءة مستأنية ومن كثب.

* أستاذ / جامعة جرش الأهلية / كلية الآداب / قسم اللغة العربية / الاردن

تمهيد:

تعد مقدمة العلامة ابن خلدون الحضرمي معلمة ثقافية نادرة، ومفخرة من مفاخر العلم، لما فيها من دقة نظر، وعمق فكر، وتبصر في شؤون البشر، واستنباط في التاريخ والاجتماع والأدب واللغة والشعر، ولما فيها من تجليات علمية " سالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها، على ذلك النحو الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة" لقد كانت ثمرة الصفاء والاختلاء مع النفس، التي عاشها العالم الكبير عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي في الفترة الممتدة من ٧٧٦-٧٨٠هـ، رشحت منها عصارة تجارب، وقطارات معاناة ممتدة، فكانت سجلاً لتراكم خبراته، وتوافر تجاربه، وتعد المقدمة موسوعة تاريخية، اجتماعية، ثقافية، سياسية، أدبية، لغوية، جغرافية، حوت من صنوف العلم أمشاجاً وأضغاثاً متناسبة متناسقة.

وأظهر ما عرف به ابن خلدون التاريخ وعلم الاجتماع، والسياسة والفكر، بيد أنك تقع في المقدمة على أفانين من العلم مبثوثة، منها مسائل لغوية أدبية ونحوية، تعد مرموقة، وصوى نتهدى بها، في لحب مسائل العربية وتخولها.

ليس غرضنا الذي نترماه أن نطلع ابن خلدون عالم لغة ونحو، وليس في وكدنا أن نستدخله بين علماء النحو الذين تمحضوا لهذا العلم، وإن كان تليس، برسيس منه، وتزيا بتجليات مشهودة، بل المقصد هو النقر في رؤاه في هذا الصدد، وإبرازها وإذاعتها بين الناس، للانتفاع بها، وإحلالها في موقعها اللائق بها، إذ له خطرات وأنظار في اللغة جليلة قمينة بالتنويه، تشخص فكره وعصره الذي امتد فيه من ٧٣٢-٨٠٨هـ عليه الرحمة والمغفرة، وله التجلة والمنة.

لسنا بحاجة إلى التعريف بهذا العلم العلامة، إذ إن سيرته وأخباره مبسوطة في المظان، يمكن تطلبها ثمة.

والمنهج الذي تكلفناه، هو قراءة أنظاره اللغوية والنحوية، عقب رصدها وتشخيصها من المقدمة، ثم مفصلتها في مفاصل مشتهرة، والتدقيق في أهميتها العلمية، وحاولنا وسعنا أن نقرن هذه الأنظار بالرائج من الأنظار النحوية، والمواصفات اللغوية، إن في القديم، وإن لدى المحدثين، كيما تصير هذه الأنظار أكثر ائتلاقاً وعمقاً، وأكثر إقناعاً، وتشي بمبلغ قيمتها وأصالتها.

أما قبل...

فقد تأصلت لدي قناعة، كانت وليدة الدراسة، والتدريس، والبحث، وخدمة العربية، التي أنفقت عمري، وأنا أنقر، وأدرس وأنظر في الهنات والعيوب، وفي المحاسن والتجليات، فتأثلت لدي تلكم القناعة الثاوية وراء كل هذه الحقب من المعاناة بأن نظرية النحو العربي سليمة، وإن خالطتها أو داخلتها هنات، طالما شغب الدارسون عليها، ورموها كلهم عن قوس واحدة، تارة بالوسم بالمعيارية أو بالوصم بكثرة التعاليل، أو الوشم بجدلية العوامل النحوية والتخاريج المتنافية أو المتناكرة، ولما أهلت نظرية تشومسكي، سقط في أيدي الشاغبين على العربية إذ في نواميس العربية وسننها النظرية كلها، وظل الناس يتواثبون، أو يتقافزون إلى هؤلاء تارة، وإلى أولئك تارة أخرى، يقتلنا الظمأ والماء على ظهورنا محمول، ننتجع الجدب والكلأ مبسوط في إرثنا وجماع هذه الدراسات الغربية من لدن سوسير حتى اليوم قد تشفع في رأب ما أثارت أيدي بعض النحاة، والذي نتغياه اليوم بكل ثقة واطمئنان هو

العودة إلى مظان موروثنا النحوي واللغوي لدى علمائنا الذين لحبوا الطريق، وتخولوا العربية، ونخلوها، ومخضوها، فجاءت النظرية النحوية العربية جبلاً لم يهزه أي ريح حتى اليوم، وقد عجزت كل المحاولات المنطوية على الإحن أو على الصدق أن تهز النظرية النحوية العربية، وكل المحاولات عجزت أن تأتي ببديل شامل لنظرية النحو العربي المؤصلة على نظرية العامل والعمل، التي لا محيص عنها البتة، بيد أن النصفة تقتضي الدارسين الانتفاع ببعض المعطيات اللغوية المعاصرة المستنبتة خارج رحم العربية، وفي تراب غير ترابها، إنها نافعة لأهلها، ولكن من العبث أن نلبس البرنيطة فوق الثوب العربي بدل العقال، وإلا صرنا شخصية ممسوخة في اللغة وفي الدرس.

هذه قناعتي التي ترسخت بأخرة ولا محيد عنها؛ لذا أجدني جد مبجل لآراء القدامى وأنظارهم، شديد التوفر على طروحاتهم المبثوثة في مظانهم، كي نجلو عنها صدأ السنين الحالكات، للإبراه على أن زامر الحي يطرب، وأن في موروثنا ما يغني العربية ويزيد، وأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. وفي طروحات هذا العالم اللغوية والنحوية، ما يزيح الشك المؤرق، والانكفاء المتخاذل، والانبهار الكسيح، والاحتقار الظالم، والاحترام المضلل لكل وافد من لدن الآخر. على أن في بعض آرائه الأصالة والجدة الملذة، وفي قبيل آخر منها التكرار والإحياء لرؤى تقادمت، وذلك لا يطامن من قيمتها بل له اليد التي لا تجحد في التفعيل والإحياء، والتذكرة التي تنفع المؤمنين. وما العلم إلا تراكم خبرات، وتواتر أنظار يعزز بعضها البعض الآخر، أو يصلحه إن أحس رسيس التواء، أو يذكر أو يجمع الشتات، أو يوضح المستغلق، أو كما قال حاجي خليفة في كشف الظنون.

محاور البحث:

ولدى التنقير في الطروحات التي أذن بها ابن خلدون في المقدمة، احتوشنا جملة من تلكم الأنظار، ها هي:

١. اللغة ملكة صناعية متعلمة بالسماع، مكتسبة من المجتمع.
٢. فساد الملكة اللغوية.
٣. التطور اللغوي في عصر ابن خلدون.
٤. مفهوم اللغة ووظائفها.
٥. أفضلية العربية.
٦. مصطلح (اللسان) العربي.
٧. تفريق بين العربية والنحو.
٨. الكلام على مسائل النحو.
٩. الكلام على الخط العربي.

ولا بأس من أن أحيل القارئ الكريم على عدد من الدراسات حول ابن خلدون في هذا الشأن

علوم اللسان عند ابن خلدون :عبد السلام المسدي، مجلة المورد، مجلد ١٥ عام ١٩٨٦

الملتقى الدولي لابن خلدون www.univ-tiaret.dz

موقف طه حسين من ابن خلدون : د.سمير الدروبي، ندوة ابن خلدون جامعة مؤتة نيسان ٢٠٠٦م

الملكة اللغوية عند ابن خلدون : د.فايز المحاسنة، ندوة ابن خلدون جامعة مؤتة نيسان ٢٠٠٦م
اكتساب اللغة بين ابن خلدون وتشومسكي : د.منى العجرمي جامعة مؤتة نيسان ٢٠٠٦
التعلم والتعليم عند ابن خلدون : د.عبد الرحمن الهاشمي جامعة مؤتة نيسان ٢٠٠٦
مصادر التنظير عند ابن خلدون: علي اومليل، مجلة الفكر العربي مجلد ١٦ عام ١٩٨٠
الديمغرافيا الاجتماعية عند ابن خلدون : موسى أبو حوسة مؤتة للبحوث عدد ١٦ عام ٢٠٠١
مجلة العلوم الاجتماعية ١٧ديسنمبر ٢٠٠٦ موقع : www.swrods.com

١. اللغة ملكة صناعية متعلمة بالسماع، مكتسبة من المجتمع:

تكلم ابن خلدون على اكتساب اللغة كلاماً مستفيضاً، ينم على وعي مكين بالحيثيات التي تحكم هذه المسألة، سبق الباحثين المعاصرين، وتابع عدداً من مفكري العربية في هذا الصدد. فاللغة في رؤاه ملكة تتحصل بالتحاكك والتخالط، إلى أن تستوي له ما يسميه المحدثون الكفاية اللغوية (١)، قال: " أعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها، وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما بالنظر إلى التراكيب... والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً" (٢).

فاللغة مكتسبة من البيئة، يظل المتلقي ينهل المفردات والتراكيب والأساليب، حتى تترسخ في الذاكرة مختزنة يوظفها المتكلم، مطابقة للنموذج المركوز في ذهنه، ومتى خالطه غيره اكتسب هذه اللغة، ومتى خالط لغة أخرى بدأ يفقد، أو يشوه، أو يشوب لغته مما داخلها من لغة أخرى.

"فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم. هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل، وتعلمها العجم والأطفال" (٣).

ماذا نستنبط من طروحات ابن خلدون:

١. اللغة تؤخذ بالمشافهة من الآخرين الذين نعايشهم، يتلقى المستمع المفردات والأساليب، وآليات الخطاب، ثم يقلدها، إلى أن ترسخ في نجره، وتستحكم في نحيزته، فتصير جزءاً من جبلته.

٢. اللغة اصطلاحية متعلمة وليست توقيفية.

٣. اللغة ظاهرة اجتماعية، تتشكل في مجتمع متواصل.

٤. الاستعداد لتعلم اللغة فطري مركوز لدى الإنسان، يشبع به حاجة اجتماعية أساسية لا مندوحة عنها، ولا يني يكتسبها كي يحقق التواصل والاندماج بالمجتمع، ولكي يحقق مقاصده التواصلية.

٥. ينسجم مفهوم الكفاية اللغوية لدى ابن خلدون مع نظرية تشومسكي في التوليدية التحويلية.❖

٢. فساد الملكة اللغوية:

تتغير هذه الملكة، ويتسرب إلى دخائلها الضعف، والانحراف، وذلك بمخالفة لغة أخرى تشغب عليها.

"وهذا معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم، ولم يأخذها غيرهم، ثم إنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبر عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضاً فاختلط عليهم الأمر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة فكانت ناقصة عن الأولى، وهذا معنى فساد اللسان العربي" (٤).

ويؤكد ابن خلدون مسألة النقاء اللغوي بالتحاجز الاجتماعي، ويضرب مثالاً لذلك لغة قريش، فهو يرى أن لغة قريش كانت أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة، وبني كنانة، وغطفان، وبني أسد وتميم، وأما القبائل التي بعدت عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة، وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية (٥).

وهذه القبائل التي تكلم على نقائها اللغوي ابن خلدون، تذكرنا بالقبائل الست التي يحتج بلغتهم، ولا سيما قريش، فقد كانت أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وإبانة عما في النفس وتتبعها قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين (٦).

وفي كلام ابن خلدون وأبي نصر الفارابي وغيرهما مغالطة، ومصادرة تبدو فيه المناكرة والمنافاة جلية، في فصاحة قريش يتقول الفراء:

"كانت العرب تحضر المواسم في كل عام، وتجح البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات جميع العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب" (٦).

فقريش كانوا أكثر الناس احتكاكاً واستقطاباً للأعاجم وسواهم، فمن أين أتاهم النقاء والصفاء اللغوي، وهم أكثر الخلق تخالطاً وتداخلاً بالأعاجم بالنظر إلى الموقع الديني والتجاري والاجتماعي!؟

وكان ابن خلدون أشار قبلاً، إلى أن هذا التمازج بالأعاجم كان له وجه سلبي وآخر إيجابي، إذ نشأت لغة جديدة سماها لغة المولدين (٨).

وقد تكلم ابن خلدون على مظاهر التطور اللغوي في زمانه، وكان شاهداً عليه.

٣. التطور اللغوي في عصر ابن خلدون:

يصف لنا ابن خلدون المشهد اللغوي المعيش في إبانه، ويصور الحالة بتشخيص واعٍ للتطور الذي لحق العربية في زمانه، فنشأت لغة جديدة في بعض سماتها، لا تسامت اللغة القديمة، ولا تماثل لغة أهل جيله:

"اعلم أن التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها، بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا، وهي عن لغة

مضر أبعد، فأما إنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحناً" (٩).

ويوضح سمات هذا التطور وخصائصه، محدداً:

"وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالأدلة على سنن لسان المضري، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات التي تعين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير، وبقرائن تدل على خصوصية المقاصد" (١٠).

ويذهب ابن خلدون إلى أن هذه اللغة الجديدة المتشكلة في الأمصار، ليست سواء، ولكنها تشبه أن تكون محكومة على وفق القطر الذي تشكلت فيه:

"وتختلف هذه اللغة الجديدة باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، وكل منهما متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده، والإبانة عما في نفسه" (١١).

يفهم من كلام ابن خلدون أن ثلاثة مستويات لغوية كانت ملموحة آنئذ منها:

١. اللغة المضرية القديمة، وهي المعيار والنموذج، ولكن ألسنة الناس بدأت تتجافى عنها، ولا سيما الحركات الإعرابية.

٢. لغة الجيل الذي كان يعيش بين ظهراني ابن خلدون، تخلصت من الحركة الإعرابية.

٣. لغة أخرى جديدة ائتلاف من اللغتين السابقتين، إن في الإعراب والمصطلح وهي تشبه أن تضارع اللغة التي أشار إليها الجاحظ في زمانه.

ويثمن ابن خلدون هذه اللغة، ويعلي من شانها ويدعو إلى الاعتناء بها، بإنسال قيم نحوية تؤطرها، لئلا تتفلت منها اللغة برمتها يقول:

"ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد،واستقر بنا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه... فلم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط، الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعاً معروفاً، وهو الإعراب" (١٢).

"لا مشاحة في أن اللغة، أية لغة، في تطور دائم دائب، في كل مستويات الأداء في الأصوات، وفي المفردات، وفي النظام، وفي الدلالة والأساليب، كيما تعبر عن مستجدات العصر وحاجاته، ولكل عصر سماته اللغوية، ممهورة بسمات العصر وخصائصه ومتغيراته" (١٣).

ولا مشاحة أيضاً في أنه "متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً، بل لا تلبث أن تنشعب إلى لهجات، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها" (١٤).

فالتطور في اللغة أمر حتمي يشبه أن يكون وجهاً من وجوه تطور الحياة نفسها وتتأثر اللغة في تطورها بعوامل عامة كثيرة" (١٥).

ولا ريب أن نواميس اللغات سرى على العربية في سننها، فاللحن أول ما فشا في الإعراب، وأول ما تحيف لغة أهل الحضر، إذ من طباعهم اللحن، وطباع أهل البدو الإعراب (١٦).

والحق أن الحركة الإعرابية تعد من أعمدة العربية الشاخصة، وأسنى خصائصها، إذ بها يصان

الكلام من اللحن والمعنى من اللبس، وبها تصير الجملة العربية مرنة طيعة، تقيمها على أي وجه تسعفك فيه الحركة الإعرابية، التي هي من أسرار العربية، أو من شجاعة العربية، على نحو ملحظ الثعالبي وابن جني.

أما دعوة ابن خلدون الموغلة في الخطر، في رجع النظر في الحركات الإعرابية والاعتياض عنها بأمور أخرى، لعله قصد الموقعية والرتبة والمعنى، التي تسعف في تبين المعاني النحوية والدلالية، أقول إن هذه دعوة أقعد في باب الشغب على العربية وأصولها ومناهجها، طالما رددها أرباب الدعوات الهدامة الذين من هممهم وسدمهم هدم أصول العربية، وسلخها من جذورها، ومسخها بأساليب مستنبتة تفقد العربية قيمتها وتقيمها على محجة التسيب والفوضى، وهي دعوة مرفوضة، طالما دعا إليه المغرضون وروجوا لها ولا سيما دوائر الإعلام المعاصرة، وعدوها من باب التيسير على الناشئة وذلك بتخليص العربية المعاصرة من الحركات الإعرابية بالتسكين القاصد ومجافاة الحركات جميعاً. وذلك على نحو ما نسمعه من فضائح لغوية، وتلوث كلامي، ورطانة من أفواه المعاصرين، وهو ملموح شاخص في فضائح بعض الفضائيات التي تستن لنفسه نموذجاً لغوياً فيه رسيس الفصحى وجله عامي في الأصوات والحركات الإعرابية، وهو أقعد في باب العهر اللغوي، والتلوث الكلامي، والتخليط على الناس بمناهج مدروسة، إذ من العمى والعماية أن تنحدر العربية إلى مستوى أفهام الناس، بحجة الفهم والإفهام، ومسايرة عقول الناس، بل على الناس أن يرتقوا إلى مستوى العربية، فهم أنباء بجدتها وهم جذيلها المحكك، بالدرس والمعرفة والإصرار على رفع الإصر عن هوية الأمة، والتجذر في الفصحى إلى أبد الآبدين.

على غرابة الأطروحة التي أذن بها ابن خدلون، وصدع بها، ونحن نرفضها، بشأن ترويض العربية وتطويعها بغير الحركات الإعرابية، فإن له قالة ينوه فيها بفضل الحركات الإعرابية، ويعلي قدرها، سنذكره في موضعه، إن شاء الله.

٤. مفهوم اللغة ووظائفها لديه:

عرف ابن خلدون اللغة فقال: "أعلم أن اللغة المتعارفة هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب
اصطلاحهم" (١٧).

فاللغة حاضنها الرئيس هو اللسان، على أن ثمة أعضاء أخر تتعاور اللغة لتفرزها، واللغة اصطلاح اجتماعي، واللغة عنده للتعبير عن المقاصد والأغراض، ونستحضر تعريف ابن جني للغة: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (١٨).

واللغة لدى ابن خلدون متعلمة صائرة إلى ملكة فاعلة لدى المتكلم.

٥. أفضلية العربية:

رسم ابن خلدون عوامل أفضلية العربية، ليس إطلاقاً أعمى، أو تعصباً مقيتاً، بل شخص العوامل

الذاتية في اللغة تستظهر بها دقائق المعاني، ولطائف الدلالات فقال:

" وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال أي الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى، وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة " (١٩).

فثمة عناصر، فضلاً عن الكلمات توضح المعنى المراد: منها الكلمات المفردة، أو الوقائع المنسوقة في تراكيب، أو الأدوات التي تفيد الربط، وتحديد المعاني بدقة، كقولنا: رغب في، أي أحب، ورغب عن، أي كره، والفضل في تبيان هذه المعاني الدقاق يرتد لحرفي الإضافة في وعن. وأما الحركات الإعرابية فلها القدح المعلى في العربية إذ بها يبين المعنى النحوي والدلالي بدقة، وتتيح للعربية حرية الحركة في الجملة بالتقديم أو التأخير أو الحذف، وهذا من أسرار العربية، أو من باب شجاعتها، على نحو ما ذكر علماؤنا الأكابر، وألمعنا إليه قبلاً. ولم تكن العربية بدعاً من بين اللغات في الإعراب، فيقال إن الساميات جميعاً كانت معربة ثم أخذت تتخلى عنه فصارت عطلاً من الحركات الإعرابية. بيد أن الحركة الإعرابية وحدها، أحياناً، لا تسعف في تبين المقاصد، لذا فإن للموقعية، والنظم الذي ذكره عبد القاهر الجرجاني

(ت ٤٧١هـ) شأناً لا يجحد ويعضد المعنى ويحدده، فتصبح حرية الموقعة والمناقلة عسيرة في الحركة الإعرابية المغيبة. فالعربية احتازت الفضائل كلها بالموقعة والنظم، والحركة الإعرابية، والأدوات، كلها تتعاور الكلم وتتخوله فتتكشف أدق المعاني جلية مفهومة.

على أننا لسنا نزعم، البتة، بأفضلية لغة على أخرى، فكل لغة تصطنع من الآليات، وتتكلف من الوسائل الفضلى كي تحقق الشفافية والوضوح والفهم والتواصل في الخطاب اللغوي، وهذه الآليات مستنبتة من واقع اللغة وحيثيات المجتمع الذي ينسلها.

ومهما يكن من أمر الحركة الإعرابية فإننا نخشى أننا إذا تنازلنا عنها، وصرنا إلى التسكين، تصير خطوة أولى تستجرنا نحو خطوات أخر في طريق التخلي عن الفصحى، وفي ذلكم البلاء المبين.

٦. مصطلح (اللسان) العربي:

وظف ابن خلدون مصطلح اللسان العربي، والألسنية كثيراً في درسه اللغة العربية، ودون ذلك استعمل مصطلح (اللغة).

ذكر علوم اللسان العربي وأركانه فقال: في علوم اللسان العربي، أركانه أربعة وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية، على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة " (٢٠).

فأهميتها ظاهرة لطالب العربية، فضلاً عن دارس الشريعة من الكتاب والسنة، وهذا أمر ظاهر لا مراء فيه.

وفرق ابن خلدون بين مصطلحات ثلاثة: علوم اللسان، وعلم اللغة، وعلم النحو. وجعل علم اللغة مقدماً بيد أن كثرة اللحن والجهل باللغة آثر أن يقدم علم النحو عليها؛ للحاجة الماسة إليه في اصطلاح ألسن الناس قال:

"وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن كثرة الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه، فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة" (٢١).

فابن خلدون واع بتقدم اللغة، ولكن الضرورة تقتضي إعطاء النحو أولية من قبل أن فساد الألسنة يقتضي الاشتغال بالنحو قبل التشاغل باللغة مع أنهما صنوان لا يفترقان، وهو يمد الصوت ويرفع العقيرة من الإخلال في التفاهم بأصول اللغة. وما يزال زملاؤنا المغاربة يلحون في استعمالهم اليومي لمصطلح اللسان، واللسانيات بدل اللغة واللغويات، وهو مصطلح متجذر منذ عهد بعيد.

٧. تفريق بين العربية والنحو:

سمى ابن خلدون العربية ملكة وسمى النحو صناعة.

"ملكة اللسان غير صناعة العربية، ومستغنية عنها في التعلم والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة إنما هي بمثابة من يعرف صناعة الصنائع علماً، ولا يحكمها عملاً" (٢٢).

وضرب ابن خلدون مثلاً لذلك البصير بالخياطة ولكنه غير محكم لملكتها... وهو إذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً، ومثله العالم بالنجارة في تفصيل الخشب، في مستوى النظر، ولكن إذا طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه" ثم أردف قائلاً: "وهكذا العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل، ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه، أو ذي مودته أو شكوى ظلامة، أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي" (٢٣).

وفي ذلكم البيان إبانة ظاهرة للتفريق بين الملكة وهي اللغة والأداء والإبداع، وصناعة النحو، وهي وضع القوانين والقواعد المستنبطة من تلكم الأنساق اللغوية.

ولكننا لا نوافق ابن خلدون في قوله: ملكة اللسان مستغنية عن الصناعة. إذ لا بد للمتكلم بلغة أن يكون عارفاً بقوانين تراكيبها، إن سليقة وطبعاً، وإن تعلماً وتكلفاً، فليس له استغناء عن المعرفة بأسرار أساليبها وقوانينها، إلا إذا كانت هاتيك اللغة سليقة، فيكون النحو الناظم لحراكها، وهو قار في ذهن المتكلم سليقة وطبعاً من غير تكلف على وفق رؤية ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) في الصاحبي (٢٤). وهذا اليوم صار رؤية خيالية، إذ لم تعد العربية سليقة فينا بل هي متعلمة مكتسبة بالدرس والتحصيل والتمرس الممض.

وفي تواضع النحاة في بصرهم بالعربية، قوله هذا فيه شيء من الشطط إلا أنه ينطوي على حقيقة، عاد ابن خلدون فاعتذر عن التعميم المجحف فقال:

"وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة، وهو قليل واتفاقي، وأكثر ما يقع

للمخالطين لكتاب سيبويه، فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب وأندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته، وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الإفادة" (٢٥).

ولكنه بالمقابل يرى أن القبيل الذي يحسن الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية. فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة " (٢٦).

نقبل هذه التعلة وتلكم القالة إذا كانت العربية طبعاً مركوزاً ونحيزه متلبسة، أما إذا كانت اللغة متكلفة متعلمة بالدرس والتحصيل فلا غنى للمبدع عن صناعة العربية البتة، ولا مندوحة للنحوي من البصر في مفاصل العربية وأفنانها.

"فاللغة العربية إعراباً وبلاغة، كانت ملكة راسخة في نفوس العرب في الجزيرة، فلما جاء القرآن وأخرجهم من هذه الجزيرة إلى هذا الملك العظيم، واختلطوا بالأعاجم، وعاشوا عيشة مدنية وحضارة، ضعفت هذه الملكة وصارت اللغة تكسب بالتعليم والتعلم" (٢٧).

وهو ما التفت إليه ابن خلدون، رحمه الله، فقال: "كانت اللغة في المبدأ ملكة في ألسنة العرب يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا، فلما جاء الإسلام، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة، بما ألقي إليها السمع من المخالطات التي للمستعربين، والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع" (٢٨).

وهذا وعي حصيف من هذا العالم الجليل للغة التي كانت يوماً ملكة، ثم استحالت إلى لغة متعلمة بالدرس والتحصيل، لذا وجب تعلمها ملكة وصناعة معاً، ولا يتأتى لمبدع مهما عظم أن يفرز فعلاً إبداعياً ما لم يحط بأمور هذه اللغة ملكة وصناعة بالدرس، وطول النظر، وعمق المعاناة والتنقير المؤرق.

٨. الكلام على مسائل النحو:

وتطالعنا في هذا الصدد، جملة من نثارات تشكل منظومة رؤى، التأمت في هذا الائتلاف الذي نسقنا فيه أجل المطالب وأظهرها:

١. أهمية النحو.
٢. ازدهار النحو خارج الجزيرة وعلى أيدي الأعاجم.
٣. أسباب وضع النحو.
٤. تطور صناعة النحو.
٥. مناهج النحاة وانتقاد مناهجهم.
٦. ضعف الدراسات النحوية والتعليل لذلك.

١. أهمية النحو:

ذكر ابن خلدون علوم اللسان العربي وجعل عدتها أربعة، عد منها النحو وقال: "والذي يتحصل أن

الأهم المقدم منها النحو، إذ تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة" (٢٩).

فعلم النحو مقدم في تعلمه، في نظره، للأسباب التي ألمع إليها، على أن علم النحو، كأنظار وقواعد، ينبغي أن يقدم للناشئة عقب الامتلاء بمعطيات اللغة إذ انه تجريد وأنظار قد يجفل منها الشداة.

٢. ازدهار الدراسات النحوية خارج الجزيرة العربية:

ذكر ابن خلدون أن الدراسات النحوية ازدهرت خارج الجزيرة العربية وعلى أيدي الأعاجم، وذلك في أرض العراق بخاصة، من قبل أن العلوم بعامة حضرية، والصنائع من منتحل الحضر، والحضر لذلك العهد هم العجم، أو من هم في معناهم من الموالي. وضرب لذلك مثلاً سيبويه والزجاج وأبو علي الفارسي وابن جني وسواهم. ثم إن العرب شغلتهم الرئاسة وشؤون الحكم عن النهوض بأعباء العلم والقيام بالنظر فيه (٣٠).

على أنه ليس من المحتم أن يكون النحاة جميعاً من الأعاجم أو من الموالي بل شابهم عدد كبير من العرب، على أن الحضارة الإسلامية آنذاك صهرت الناس جميعاً في بوتقة الإسلام، فكلهم صاروا في الدين والعلم إخوة.

ولا مشاحة أن الاستقرار الذي نعمت به الأمة في الأقطار المفتوحة، ولا سيما العراق الذي كان مشكاة العلم والحضارة، وما بسطه الخلفاء من تشجيع للعلم والحضارة، التي كان كل شيء يكاد يكون بكراً وفتحاً، هذه العوامل وسواها شجعت على ازدهار الحضارة الإسلامية، فصارت بغداد كعبة العلم، ومحج العلماء.

٣. أسباب وضع النحو:

يرى جل العلماء والدارسين أن ولادة النحو كانت وليدة الحاجة إلى إصلاح الخلل الواقع في ألسنة الناس، يقول ابن خلدون:

"وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه، مثل أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً، وأمثال ذلك، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو" (٣١).

فمن دواعي وضع النحو الخوف من فساد اللغة، ومن ثم الخشية من عدم فهم القرآن والحديث. ففهم القرآن والحديث كان من أجل الأهداف.

والحق أن أية لغة في الدنيا لا بد أن يرافقها علم النحو، سواءً أفسدت الألسنة أم استقامت، فهو علم يرد بالتوافق مع اللغة المعنية، وهي مرحلة نظر متقدمة يعمد إليها المتعلم بالنظر إلى معطيات اللغة، واستنباط قواعدها وقوانينها.

وأشار ابن خلدون إلى مسائل القياس والسماع، والأشباه والنظائر، والإعراب والعوامل، وكلها أمور ناظمة للغة، حاضنة لمعطياتها، ضابطة لحراكها.

٤. تطور صناعة النحو:

ذكر ابن خلدون أولية النحو وأسندها إلى أبي الأسود الدؤلي الكناني، ويقال بإشارة من علي، رضي الله عنه؛ لأنه رأي تغير الملكة ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد أيام الرشيد، فهذب الصناعة وكمل أبوابها... وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها، ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده، ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاجي كتباً مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه.

ويلتفت ابن خلدون إلى مرحلة التمذهب في النحو "ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصريين القديمين للعرب" (٣٢).

ويلتفت عقيب ذلك إلى مرحلة المختصرات النحوية التي أخلت كالذي فعله ابن مالك في التسهيل، والزمخشري في المفصل، وابن الحاجب في المقدمة له.

ثم يعرج على منهج النظم في النحو "وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى، وابن معط في الأرجوزة الألفية" (٣٣).

ثم يقفنا ابن خلدون على مرحلة الضعف في الدراسات النحوية: وقد كادت هذه الصناعة تؤذن بالذهاب، لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران بيد أن رسيساً من العلم ظل متماسكاً في شخص ابن هشام:

"ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين ابن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة. وتكلم على الحروف والمفردات والجمل وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الإعراب، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني، واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشيء عجيب، دال على قوة ملكته واطلاعه" (٣٤).

ويعد ابن خلدون شاهداً ذكياً على الحركة العلمية والفكرية والسياسة وأحوال عصره في العموم، شخص الظواهر، ووصف الأدواء، وأحضر العلاج.

فالنحو، فعلاً استحال بأخرة إلى طلاسم وأحاجٍ مملة مؤرقة، بعد أن ذهب الأعلام وتبدلت المناهج، وتسلطت مناهج مقحمة أو متعسفة.

٥. مناهج النحاة، وانتقاد مناهجهم:

شخص ابن خلدون مناهج النحاة آنئذٍ، ورسم لها صورة ملموحة في تضاعيف مقدمته:

١. منهج الدرس النظري، وإقامة القواعد عطلاً من الشواهد اللغوية بمستوياتها المتنوعة، وبصنيعهم هذا أحالوا النحو إلى قوالب جامدة مستغلقة، يجفل منها الدارسون، وهي من أشد أدواء النحو، وقد هاجمهم ابن خلدون، ووشمهم بالإكثار من اللحن إذا كتبوا أو تكلموا، وتكثروا من الحجج والعلل، والأقيسة المنطقية، فصدف عنه الدارسون بله الشداة، قال:

"أجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً، وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب، إلا أن

أعربوا شاهداً، أو رجحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه. فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل، وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وأفاد ذلك حملتها في هذه الأمصار وآفاقها البعد عن الملكة بالكلية، وكأنهم لا ينظرون في كلام العرب، وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه، وتميز أساليبه، وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان، وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها، وأصاروها علماً بحتاً، وبعدوا عن ثمرتها" (٣٥).

شخص ابن خلدون الداء، ووصف له الدواء. فأهل هذا المنهج مردوا على صنع قواعد ونظريات، فيها الجفاف والتيبس، من قبل أنها ليست مشفوعة بالشواهد والأمثلة المستلة من مستويات العربية التي تفضي إلى الدرس المتسمح، والليونة المغرية بجذب الدارس الذي يتوفر على الوقائع اللغوية والشواهد ابتداءً فيحللها ويتعرف إلى أبعادها وقيمتها الدلالية واللغوية، وبآخرة يستنبط القواعد، بالنظر وإعمال العقل الذاتي وليس بالفرض الفوقي الإملائي، وهذه شنشنة نعرفها لدى عدد جم من النحاة، الذين يبسوا النحو وجمدوه في أنماط وقوالب لا معقب عليها.

وهذه الأطروحة ملموحة لدى الجاحظ إذ أخذ يلحب منهجاً للنحو سوياً:

"أما النحو فلا تشغل قلب الصبي منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب أن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أرد عليه من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع. وإنما يرغب في بلوغ غاية النحو ومجاوزة الاقتصاد فيه من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الأمور والاستنباط لغوامض التدبير لمصالح العباد والبلاد ومن ليس له حظ غيره، ولا معاش سواه، وعويص النحو لا يجري في المعاملات ولا يضطر إليه شيء" (٣٦).

فالدعوة إلى النحو الوظيفي الذي يوظفه المتكلم في وقائع الحياة، مطلب ألح عليه النحاة قديماً، وما زاد على ذلك فهو متروك لأمر الدارسين والبحثة، وما يسمى اليوم الدراسات العليا، المتبصرة في الدقائق وما بين السطور.

٢. المنهج الثاني، منهج القواعد والشواهد:

وهو منهج تمدحه ابن خلدون، ولحبه سيبويه في الكتاب، فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه والمتحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه، ومفاصل حاجته، وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الإفادة" (٣٧).

ويشير ابن خلدون إلى جغرافية توظيف هذا المنهج، ويطريه، فيقول:

"وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم، بالقيام على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم، فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم فينقطع النفس لها، وتستعد إلى تحصيلها وقبولها" (٣٨).

ونحن نمد الصوت، ونرفع العقيرة بالثناء على هذه الرؤية الجليلة، وهذا المنهج المتلئب، الذي يتفق وتطلعات الدارسين المحدثين الذي ينطوي على المنهج الاستقرائي الاستنباطي الذي يفعل العقل والنظر في التحديق والتملي من الشواهد المعطاة، واستنباط القواعد بتندية وإسماح وإقناع، تلذ القارئ، فتسيغ القواعد وتسلكها إلى القارئ على أطباق من شواهد لغوية حية معيشة تجذب القارئ ولا تجفله، ثم هو لا يتجهمها ولا يتعبس، وقالة ابن خالويه مسحضرة الآن، فقد قيل إن رجلاً أتى ابن خالويه فجعل يقول: أريد أن أتعلم من العربية ما أقيم به لساني، فقال له ابن خالويه: أنا أتعلم النحو منذ خمسين عاماً فما تعلمت ما أقيم به لساني.

وذلك آت من التخليط بين العجر والبجر، واحتواش ما يلزم وما لا يلزم نتغيا بالتكثر، والتزيد، مما جعل الناس تتهيب النحو، وتتقحمه بإكراه.

٦. ضعف الدراسات النحوية في زمن ابن خلدون، والتعليل لذلك:

يرتد أسباب اختلال المعرفة النحوية، في نظر ابن خلدون إلى أسباب عامة وخاصة، من أظهرها كثرة التآليف، واختلاف الاصطلاحات في التعاليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك.

"ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك كيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر" (٣٩).

ويذكر أيضاً أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالعلم، "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يولعون بها، ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسراً على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون فاختصروها... وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ... ثم فيه شغل كبير على المتعلم يتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح عن الوقت" (٤٠).

أجل إن حشد المعلومات المتكاثرة تكد الذهن، فكثرة الزحام يعيق الحركة والزخم من المعارف المكثفة تتعب الذاكرة، ثم إن المختصرات المكثفة المتراصة بالحقائق ترهق الفكر، وتهدر المسائل الأمات، والمنهج المرتضى "إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً، وقليلاً فقليلاً، يلقى عليه مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب" (٤١).

وهذا منهج متقبل، ينسجم وأحدث نظريات التعلم في العصر الحديث، إن في النحو، وإن في سائر العلوم، تنم على رؤية ثاقبة، وعمق فكر وتأمل في معطيات العلوم على الجملة، وفي اللغة والنحو، بخاصة. ما أحرى أبناء الأمة من البحثة والقرائين والدارسين أن يتوفروا على هذا الموروث للنقب عن عدد جم من الأصول والرؤى الممتازة، التي ربما سبق بها علماؤنا الجلة من العلماء المعاصرين في كثير من الأنظار والطروحات، لإحلال هؤلاء العلماء في أسمق مراتبهم، وأسنى مواقعهم، من غير تنفج، أو إحساس بالدونية.

٧. الكلام على الخط العربي:

تكلم في البداءة على أساليب البيان لدى الإنسان، فمنها البيان بالعبارة أي الكلام، "وذلك البيان إنما يكون بالعبارة، وهي الكلام المركب من الألفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف، وهي كيفيات الأصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر" (٤٢).

ثم تكلم على الرتبة الثانية في البيان عما في النفس وقال:

"وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدى بها ما في الضمير، لمن توارى أو غاب شخصه وبعد، أو لمن يأتي بعد ولم يعاصره ولا لقيه، وهذا البيان منحصر في الكتابة" (٤٣).

فالبيان إما بالعبارة المنطوقة، وإما بالعبارة المكتوبة.

والكتابة رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ النطقية حروفاً بحروف وكلمات بكلمات. والكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان، وأيضاً فهي تطلع على ما في الضمائر، وهي صناعة حضارية وتستحكم في أهل الاجتماع والعمران والتنامي في الكمالات والطلب، لذا تكون جودة الخط في المدينة، إذ هو من جملة الصنائع... ولهذا نجد أكثر البدو أميين ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصراً أو قراءته غير نافذة" (٤٤).

أصالة الخط العربي:

ذكر ابن خلدون أن الخط العربي نشأ من الخط الحميري، "لما بلغت من الحضارة والترف، وانتقل منها إلى الحيرة، ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش وكتابة حمير تسمى المسند حروفها منفصلة، ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو... وكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، وأنظر ما وقع لأجل ذلك في رسم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من

رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها" (٤٥).

ويؤرخ ابن خلدون لحركة الخط العربي تأريخ الواثق البصير. ويذكر أن الخط العربي بلغ رتبة الإتقان في البصرة والكوفة، إلا أنه كان دون الغاية، ثم جاء الخط البغدادي المخالف له، وكان أشهر الخطاطين في بغداد علي بن مقلة الوزير... ثم انتقل الخط إلى مصر عقب سقوط بغداد، وثمة الخط الأندلسي والمغربي وأحسنه خط أهل أفريقية. وفي أخرة استحال الخط في زمانه إلى مصطلحات مستعجمة لا يعرفها إلا كتاب دواوين السلطان، وسجلات القضاة، لكتمان ذلك عن الناس، فإنه من الأسرار السلطانية، التي يجب إخفاؤها، وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب، والفواكه، والطيور، والأزاهير (٤٦).

لا يخفى عن أي ذي حجر ما لهذه الأنظار من قيمة علمية وثقافية انطوت عليها مقدمة ابن خلدون المكتنزة علماً وفكراً، يبلغ شأواً عالياً ربما شأى غيره، وأبره فيه على عبقريته الفذة.

وفذلكة هذه الدراسة:

١. يقترب ابن خلدون في كثير من أنظاره ورؤاه اللغوية من نظريات تشومسكي في العصر الحديث، ولا سيما في اكتساب اللغة، وفي الكفاية اللغوية، التي طالما تحدث عنها تشومسكي بابتهاء شديد، ينطوي على ادعاء الأسبقية، وهذه الموافقات تقتضي وقفة أعمق مجلية ذلكم التشابه، لا يسعف فيها هذا المقام، بتفاصيل مستفيضة.❖

٢. تغير الملكة اللغوية يقتضي تعلم اللغة، بالترويض والتلقي والدرس.

٣. الملكة اللغوية قابلة للفساد والتغير بعوامل متنوعة.

٤. اللغة في تطور دائم، ووصف لنا ابن خلدون اللغة المعيشة في زمانه المغايرة للعبارة المعيارية.

٥. دعوة ابن خلدون إلى التخلي عن الاحتكام إلى الحركات الإعرابية والالتفات إلى سمات داخل اللغة، وهي من نواميسها وسننها، نتقوى ونتهدى بها للوصول إلى إحكام فهم الخطاب اللغوي وتبين المعالم الدلالية المستكنة في النص.

٦. تكلم على أفضلية العربية بالإعراب الذي لا يمكن الاستغناء عنه.

٧. يكثر ابن خلدون من مصطلح (اللسان العربي) والألسنية، وهو ما يزال فاشياً لدى العلماء المغاربيين.

٨. تكلم ابن خلدون على جملة من مسائل تهم النحو والنحاة، وعاب عليهم مناهج درسهم، والشطط في التآليف، والاختصار المخل ببعضها.

٩. لحب منهجاً قيماً، ومهيعاً مقبولاً للتعليم في الجملة، وفي النحو بخاصة يقبله الشداة، وينسجم وأسنانهم وأقدارهم النمائية.

١٠. أرخ ابن خلدون لنشأة الخط العربي، وأحسنه في الحضر، وتنقله في الأوساط الإسلامية.

١١. في المقدمة أنظار لغوية ونحوية وأدبية متناهية في العمق والغاية في الإتقان، إن في الاجتماع، وإن في التربية، وإن في التاريخ والعمران، تنم على صفاء عقل، وسعة أفق، واطمئنان العالم المتيقن.

١٢. لا نزعم، البتة، أن آراء ابن خلدون اللغوية والنحوية، الملمع إليها، كلها جديدة مبتكرة، فبعضها متألق جديد له نكهة خلدونية فذة، وآراء أخر نفخ فيها من روحه ومن رؤاه، وهي متقادمة، بيد أنه عززها وفعلها، كيما تظل حية في النفوس، ولم يلغها أو يناكرها، مما يشي بأنها متقبلة لديه، مخضها وتخولها كي تظل حية رائجة، ولا تثريب عليه في ذلك.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

والحمد لله أولاً وآخراً.

هوامش البحث:

١. الألسنية التوليدية والتحويلية: د. ميشال زكريا ٧، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د. نايف خرما، عالم المعرفة، ٢٣٥، صفحة ١١٩، وينظر الصاحبي ص ٦٢.

٢. مقدمة تاريخ ابن خلدون، طبعة ثانية، دار الفكر، ٧٦٤.

٣. المقدمة، ٧٦٥.

٤. المقدمة، ٧٦٥.

٥. المقدمة، ٧٦٥.

٦. كتاب الحروف: أبو نصر الفارابي، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، وينظر الاقتراح للسيوطي: ٥٦، ومن أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، طبعة خامسة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٥، ص ٣٤.

٧. الاقتراح للسيوطي، ١٩٨.

٨. البيان والتبين للجاحظ ١/١٦١.

وينظر العربية: يوهان فك، ترجمة د. رمضان عبد التواب، ٢٠.

٩. المقدمة، ٧٧٠.

١٠. المقدمة، ٧٧٠.

١١. المقدمة، ٧٧٠.

١٢. المقدمة، ٥٥٧.

١٣. العربية: يوهان فك، ١٠٩.

١٤. فقه اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، ١٣١، وعلم اللغة: د. عبد الواحد وافي، ١٧٢.

١٥. التطور الدلالي: عودة أبو عودة، ٤٥، التطور اللغوي: د. رمضان عبد التواب، ١٢، ودلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس، ١٢٢.

١٦. طبقات النحويين واللغويين، ١٣١؛ والخصائص لابن جني، ٢/٣١.

١٧. المقدمة، ٧٥٣.

١٨. الخصائص ١/٣٠.

١٩. المقدمة، ٧٥٤.

٢٠. نفسه، ٧٥٣.

٢١. نفسه، ٧٥٣.

٢٢. نفسه، ٧٧٢.

٢٣. نفسه، ٧٧٣.

٢٤. الصاحبي: ابن فارس: تحقيق مصطفى الشويمي، ٣٨.

٢٥. المقدمة، ٧٧٣.

٢٦. نفسه، ٧٧٣.

٢٧. ملامح من تاريخ اللغة العربية: د. أحمد نصيف الجنابي، ٧٧.

٢٨. المقدمة، ٧٥٤.

٢٩. نفسه، ٧٥٣.

٣٠. نفسه، ٧٤٨.

٣١. نفسه، ٧٥٤، وينظر نشأة النحو، محمد طنطاوي. وسبب وضع علم العربية للسيوطي، ٣٠.

٣٢. نفسه، ٧٤٥، ٧٥٥.

٣٣. نفسه، ٧٥٥.

٣٤. نفسه، ٧٥٥.

٣٥. نفسه، ٧٤٤. ويراجع: النحو الغائب: عمر عكاشة، ٣٨.

٣٦. الحيوان للجاحظ ٩١/١ طبعة البائي الحلبي.

٣٧. المقدمة، ٧٧٣.

٣٨. نفسه، ٧٧٤، ويراجع: اللغة اللغة: د. أنيس فريحة، ٦٨.

٣٩. المقدمة، ٧٢٧، ٧٢٨.

٤٠. نفسه، ٧٣٣.

٤١. نفسه، ٧٣٤ ويراجع: تيسير النحو: د. شوقي ضيف، ١٣.

٤٢. نفسه، ٧٢٩.

٤٣. نفسه، ٧٢٩.

٤٤. نفسه، ٧٢٩، ٥٢٤.

٤٥. نفسه، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦ ويراجع: الصاحبي لابن فارس، ٣٤. ويراجع: الفهرست لابن الندرمم، ٦.

٤٦. المقدمة، ٥٣١.

❖يراجع في هذه المسألة:

نظرية النحو العربي : د.نهاد الموسى، طبعة ٢ دار البشير ص ٥٩

الألسنية التولدية والتحويلية : د.ميشال زكريا، طبعة ١ ص٨

النحو العربي والدرس الحديث : د.عبده الراجحي ص١١٥

مبادئ اللسانيات : د.احمد قدور، طبعة١ ٩٩٦، ص٢٥٨

محاضرات في اللسانيات : د.فوزي الشاهي عمان ٩٩٩ م ص ٣٧٤

ثبت المصادر والمراجع

١. الاقتراح: السيوطي، تحقيق: أحمد محمد قاسم، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٦.

٢. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: د. نايف خرما، عالم المعرفة، ٢٣٥.

٣. الألسنية التوليدية والتحويلية: د. ميشال زكريا، طبعة أولى، ١٩٨٢م.

٤. البيان والتبين: الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت.

٥. التطور الدلالي: عودة أبو عودة، مكتبة المنار، طبعة أولى، ١٩٨٥م.

٦. التطور اللغوي: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧.

٧. تيسير النحو: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.

٨. الخصائص: ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت.

٩. دلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس، الأنجلو المصرية، ١٩٧٦م.

١٠. سبب وضع علم العربية: السيوطي، تحقيق مروان العطية، دار الهجرة، ١٩٨٨م.

١١. الصاحبي في فقه اللغة: ابن فارس، تحقيق د. مصطفى الشويمي، بيروت.

١٢. طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.

١٣. العربية: يوهان فك، ترجمة د. رمضان عبد التواب، مطبعة الخانجي، ١٩٨٠م.

١٤. علم اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، الطبعة السابعة، دار نهضة مصر.

١٥. الفهرست: ابن النديم، دار المعرفة، بيروت.

١٦. فقه اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، طبعة سابعة.

١٧. كتاب الحروف: أبو نصر الفارابي، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت.

١٨. اللغة العربية: د. أنيس فريحة، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠م.

١٩. مقدمة ابن خلدون: دار الفكر، طبعة ثانية، ١٩٨٨م.

٢٠. ملامح من تاريخ اللغة العربية: د. أحمد نصيف الجناني، دار الرشيد، بغداد.

٢١. من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، طبعة خامسة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.

٢٢. النحو الغائب: عمر عكاشة، الطبعة الأولى، دار الفارس، عمان، ٢٠٠٣م.

٢٣. نشأة النحو: الشيخ محمد طنطاوي، دار المنار، ١٩٩١م.